تاريخ يتكلم ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أيعرفُ القراءُ أن في الأحلام أحلاماً هي قِصَصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء، مُحكَمةُ الوضع مُتَّسقةُ التركيب بديعةُ التأليف، يحمل المرءَ حين ينام كأنه أسلم نفسه إلى (شركة من الملائكة)، تَسيح به في عالَمٍ عجيبٍ كأنما سُحِرَ فتحوّل إلى قصة؟

إن يكنْ في القراء من لا يعلمُ هذا فليعلمْه مني؛ فإني كثيراً ما أكتبُ وأقرأ في النوم، وكثيراً ما يُلقَى عليّ من بارع الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دوّنتُه لعُدَّ من الخوارق والمعجزات

وهذه القصةُ التي أرويها اليوم، كانت المعجزةُ فيها أني مشيتُ في التاريخ كما أمشي في طريق ممتدّة؛ فتقدمتُ إلى أهل سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فمشيتُ معهم وتَخَبَّرتُ من أخبارهم، ثم رجعتُ إلى زمني لأقصَّ ما رأيتُه على أهل سنة ١٣٥٣ . . .

أمسيتُ البارحةَ كالمغموم في أحوالٍ ثقيلة على النفس ما تنطلقُ النفس لها، أوّلُها سوءُ الهضم؛ ومتى كان البدءُ من هنا لم تكن الحركة في النفس إلا دائرةً، تذهبُ ما تذهب ثم لا تنتهي إلا في سوء الهضم عينِه. جلستُ في النديّ الذي أسمُرُ فيه أحياناً، فكان لجوّه وزنٌ أحسستُه كما يحسّ الغائصُ في الماء ثقلَ الماءِ عليه؛ ودخّنتُ الكركرةَ(١) فلم تكن هواءً ودخاناً يتروّح، بل كانت من ثقلها كالطعام يدخل على الطعام؛ ونظرتُ ناحيةً فأخذتْ عيني رجلاً فيليَّ الخِلقة، مُنطادَ البطن، كأنما نُفِخَ بطنُه بالآلات، يحمل منه مقدار أربعةٍ من بطون البَدينات الحوامل، كلٌّ منهن في الشهر التاسع من حَمْلها . . . ؛ وكان معي إلى كل هذا البلاء خمسُ صحفٍ يوميّة أريدُ قراءتها . . . !

(١) الكركرة: اسم وضعناه (للشيشة) أو النارجيلة، أخذاً من صوتها، كما صنع العرب في تسميتهم (القطا) أخذاً من صوت هذا الطير، وكما هي طريقتهم؛ وتجمع الكركرة: كراكير، بالياء للخفة

ثم جئتُ إلى الدار، والمعركةُ حاميةٌ في أعصابي؛ وما كان سوءُ الهضم مُنوِّمةً فيدعوَ إلى النوم، فدخلتُ بيتَ كُتُبي وأردتُ كتاباً أيَّ كتابٍ تناله يدي، فخرج لي كتابٌ في خرافات الأوّلين وأساطيرهم وهَذَيانهم وسوءِ هضمهم العقليّ.. كالكلام عن أدُونيس وأرطاميس ودبونيس وسميراميس وإيسيس وأتوبيس وأرغتيس . . . فاستعذتُ بالله وقلت: حتى الكتبُ لها في هذه الليلة أعصابٌ قد نالَها الثِّقْلةُ والألم . ؟

وبات الليلُ يقظان، وبقيتُ مُتَمَلْمِلاً أتقلّبُ حتى أخذ الصداعُ في رأسي، فانقلب التعبُ نوماً، وجاء من النوم تعبٌ آخر، وقُذِفتُ إلى عالم الأحلام في قنبلة، تستقرُّ بي حيث تريد لا حيث أريد:

* * *

ورأيتُني في قوم لا أعرف منهم أحداً، قد اجتمعوا جماهير، وسمعتُ قائلاً منهم يقول: « الساعةَ يمرُّ مولانا العالي » فقلت لمن يليني: « مَن يكونُ مولانا العالي؟ » قال: « أوَ أنتَ منهم؟ » قلت « ممّن؟ » فألهاه عن جوابي تَشَوُّفُ الناس وانصرافُهم إلى رجلٍ أقبلَ راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: « القمر القمر(١) » ورفَع الرجلُ الذي يُناكبُني صوتَه يقول: « البركاتُ والعَظَماتُ لك يا مولانا العالي! »

قلت: « إنّا لله! لقد وقعتُ في قوم من الزنادقة، يعارضون « التحياتُ والصلَواتُ والطيّباتُ لله » ؛ ثم مرّ صاحب الحمار بحذائي، وغَمَزه الرجلُ عليّ، فقال: « ما بالُك لا تقول مثلَه؟ » قلت: أعوذ بالله من كفرٍ بعد إيمان؛ فكأنما أراد أن يلطمني فرفع يده، فصِحتُ فيه: « كما أنتَ ويلكَ وإلا قبضتُ عليك وأسلمتك للبوليس، وشكوتك إلى النيابة، ورفعتك إلى محكمة الجُنَح! »

قال: « ماذا أسمع؟ الرجلُ مجنونٌ فخذوه! » وأحاط بي جماعةٌ منهم، ولكنه تَرَجّل عن حماره وأخذ بيدي ومشينا، فقلت: « من أنت يا هذا؟ » قال: « أراكَ من غير هذا البلد؛ أما تعرف الحاكمَ بأمر الله؟ فأنا هو. » قلت: « انظر ويحكَ ما تقول؛ فما أظنُّكَ إلا ممروراً؛ لقد كتبتُ أمس كتاباً إلى

(١) القمر: اسم ذلك الحمار، وسيمر ذكره في القصة

مجلة (الرسالة) أرّخته ١٣ من ذى الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥ ، وأرسلتُ به مقالة (الخروفين) . . . »

قال : ماذا أسمع ؟ نحن الآن فى سنة ٣٩٥ ؛ فالرجل مجنون ، أوْلا فأنت أيها الرجلُ من معجزاتى . لقد جئتُ بكَ من التاريخ ، فسترى وتكتب ، ثم تعود إلى التاريخ فتكون من معجزاتى ، وتقصُّ عنى وتشهد لى . . . ! »

قلت : « فانى أعرف أعمالك إلى أن قُتلتَ فى سنة ٤١١ ...! »

قال : « أوَ إلَه أنت ، فتَخلق ستَّ عشرةَ سنةً بحوادثها؟ لقد كدتَ من أفْنِك وغباوتك تُفسد علىّ دعوى المعجزة ! »

وهاج الصداعُ فى رأسى ، وبلغ سوءُ الهضم حدّه ، واشتبكتْ سيئاتُ إيسيس وأوتيبس الخ بسين إبليس ، ومرتْ بين كل هذا حوادثُ الطاغية المتوه المتجبِّر ، فرأيته يبتدع فى كل وقت بِدَعاً ، ويخترع أحكاماً يُكره الناس على أن يعملوا بها ، ويعاقبهم على الخروج منها ، ثم يعود فينقض أمره ، ويعاقب على الأخذ به ، كأن الذى نَقَض غيرُ الذى أبْرَم ، وكأنه حين يتبلد فيُعجزه أن يخترع جديداً ــ يَجعل اختراعَه إبطالَ اختراعه !

ورأيته كأنما يعتدُّ نفْسَه مُخ هذه الأمة ، فلابدَّ أن يكون عقلاً لعقولها ، ثم لا بدّ أن يَستعلىَ الناسَ ويستبدّ بهم استبدادَ الشريعة فى أمرها ونهيها ، فكانت أعمالُه فى جملتها هى نقضَ أعمال الشريعة الاسلامية ، وظنّ أنه مستطيعٌ محوَ ذلك العصر من أذهان الناس وقَتلَ التاريخ الاسلامى بتاريخ قاتلٍ سفاك

وسوّل له جنونُه أنه خُلق تكذيباً للنبوة ؛ ثم أفرَطَ عليه الجنون فحصَّل فى نفسه أنه خُلق تكذيباً للألوهية . وفى تكذيبه للنبوّة والألوهية يحمل الأمة بالقهر والغلبة على ألا تصدّق إلا به هو ؛ وفى سبيل إثباته لنفسه صنع ما صنع ، فجاء تاريخه لا ينفى ألوهيةً ولا نبوّة ، بل ينفى العقل عن صاحبه ؛ وجاء هذا التاريخ فى الاسلام ليتكلم يوماً فى تاريخ الاسلام . . .

***

رأيتنى أصبحتُ كاتباً لهذا الحاكم ، فجعلتُ أشهد أعماله وأدوّن تاريخه وأقبلتُ على ما أفرَدَني به ، وقلتُ فى نفسى : « لقد وضعتنى الدنيا موضعاً عزيزاً لم يرتفع اليه أحد من كتّابها وأدبائها ، فما كتب عن هذا الدهر بعقلٍ بينه وبين هذا الدهر ٩٦٨ سنة صاعدة فى العلم

ودوّنتُ عشرة مجلّدات ضخمة انتهتُ وأنا أحفظها كلها ، فاذا هى جملٌ صغيرة ، جملَ الحُلم كلّ نبذةٍ منها سفراً صخما كما يُخيَّل للنائم أنه عاش عمراً طويلا وأحدثَ أحداثاً ممتدّة ، على حين لا تكون الرؤيا إلا لحظة

وهذه هى المجلّدات التى قلتُ : إن التاريخ يتكلَّمُ بها فى التاريخ . . .

المجلد الأول

ابتُلِىَ هذا الطاغيةُ بنقيصتين : إحداهما من نفسه والأخرى من غيره ؛ فأما التى من نفسه فانى أراه قد خُلق وفى مُخه لُفافةٌ عصبية من يهوديّة جدّه رأس هذه الدعوة ؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم بن المهدى عُبيد الله ، ويقولون إن عبيد الله هذا كان ابن امرأة يهودية من حدّاد يهودى ، فاتفق أن جرى ذكر النساء فى مجلس الحسين بن محمد القدّاح فوصفوا له تلك المرأة اليهودية ، وأنها آيةٌ فى الحُسن ، وكان لها من الحداد ولد ، فتزوّجها الرجل وأدّبَ ابنها وعلّمه ، ثم عرّفه أسرار الدعوة الفَلَوية وعهد اليه بها

ومن بعض اللفائف العصبية فى المخ ما ينحدر بالوراثة مطبوعاً على خيره أو شره ، لا بدّ للمرء فيه ولا حيلة له فى دفعه أو الانتفاء منه ، فيكون قدَراً يتسلْسلُ فى الخلْق ليُحدثَ غاياته المقدورة ، فمتى وقع فى مخ انسان فالدنيا به كالحُبلى ولابد أن تتمخّض عنه

هذه اللُّفافة اليهودية فى مخ هذا الطاغية ستحقّق به قولَ الله تعالى : « لتجِدنّ أشدّ الناسِ عداوةً للّذين آمنُوا اليهود . » فهو لن يكونَ العدوّ للأسلام دون أن يكون الأشدّ فى هذه العداوة ، ولن يكون فيها الأشدّ حتى يعمل بها الأفاعيل المنكرة . وما أرى هذه المآذن القائمة فى الجو إلا تخرق بنظرها عينيه من بغضه للاسلام وانطوائه على عداوته ؛ فويلٌ لها منه !

وأما النقيصة الثانية فقد ابتُلِىَ بقوم فتنوه بآرائهم ومذهبهم ، وهم حمزة بن على ، والأخرم ، وفلان ، وفلان . . . وقد لفّقوا للدنيا مذهباً هو صورة عقولهم الطائشة ، لايجىء إلا للهدم ، ثم لا يضع أولَ معاوله إلا فى قبة السماء ليهدمها . . . !

ولو أنا جمعت هذا المذهب فى كلة واحدة لقلتُ : هو حماقةٌ حمقاء تريد إخراج الله من الوجود لإدخال الله فى بعض الطغاة !

ويتلقبون فى مذهبهم بهذه الألقاب: العقل ، الأرادة ، الامام ، قائم الزمان ، علة العلل . . . . وهذه هى الشيوعية بعينها ، تعمل على هدم فكرة الألوهية وإلحاقها بالخرافة ؛ كأن القائم بهذا المذهب هو عقل الناس وإرادتهم ، كرهوا أم رضوا ، فلا إرادة لهم معه ولا عقل ، وهو الزمنُ فيصبغ الزمنَ بما شاء ، ويجعله كيف شاء ، لأنه القائم به وعلة العلل فى سياسته وتدبيره

شيوعية آ ثمة ، كَـبُرت فى حماقتها أن تقوم بجنونٍ واحد ، فلا تقوم إلا باثنين معاً : جنون العقل ، وجنون السيف !

المجلد الثانى

أظهرَ الطاغيةُ أن الله يؤيّد به الأسلام ، ليتألّف الجندَ والشعب ويستميلهم إليه ، وكان فى ذلك لئيمَ الكيد دنىء الحيلة يهوديّ المكر . فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفُتْيا ، وبَذَل فيها الأموال ، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ، وبالغ فى إكرامهم والتّوْسعة عليهم والتخضّع لهم ، ودخل فى ظلال العمائم . . . وأحضر لنفسه فقيهين مالكيّين (اثنين لا واحد) يعلّمانه ويفقّهانه ، وكان أشبه بمريد مع شيخ الطريقة يتسمّح به ويَتَيمّن ؛ أشرف ألقابه أنه خادم العمامة الخضراء ، وأسعدُ أوقاته اليومُ الذى يقول له فيه الشيخ : رأيتُك فى الرؤيا ورأيت لك . . . !

وكانت هذه المعاملة الأسلامية الكريمة من هذا الطاغية — هى بعينها ربا اللُّفافة اليهودية فى مُخّه ؛ تصلح باقراض مائة ، وفيها نية الخراب بالستين فى المائة . . . ! فانه ما كاد يتمكّن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به ، حتى طلبت اللفافةُ رأس المال والرّبا ؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها ، وأبطلَ العيدين وصلاةَ الجمعة ، وقتلَ الفقهاءَ وقتلَ معهم فقيهيه وأستاذَيه ، وعادَ كالمريد المنافق مع شيخ الطريقة ، يقول فى نفسه : إن هنالك ثلاثةً تعمل عملاً واحداً فى الصيد : الفخّ ، والعمامة ، واللّحية . . . !

إن هذا الطاغيةَ ملكٌ حاكم ، يستطيع أن يجعل حماقته شيئاً واقعاً ، فيقتلَ علماء الدين باهلاكهم ، ويقتلَ مدارس الدين باخرابها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنق كل ذى عمامة من سواد المسلمين فى عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجّح ويرى هذا قوةً ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله اللهُ كالذبابة التى تصيب الناس بالمرض ، والبعوضة التى تقتل بالحمّى ، والقملة التى تضرب بالطاعون ، فلو نخرتْ ذبابةٌ أو تبجحتْ قملةٌ أو استطالتْ بعوضةٌ لجاز له أن يطن طنينه فى العالم . وهل فعلَ أكثرَ مما تفعل ؟

لقد أودى بأناس يقوم إيمانهم على أن الموت فى سبيل الحق هو الذى يخلدهم فى الحق ، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذى يضعهم فى حقيقتها ، وأن هذه الروح الأسلامية لا يطمسها الطغيانُ إلا ليجلوَها

إنه والله ما قتَل ولا شنقَ ولا عذّب ، ولكن الأسلام احتاج فى عصره هذا إلى قوم يموتون فى سبيله ، وأعوزه ذلك النوع السامى من الموت الأول الذى كان حياةَ الفكر ومادة التاريخ ، فجاءت القملة تحمل طاعونَها . . . !

لقد أحياهم فى التاريخ ، أما هم فقتلوه فى التاريخ ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين ، أما هم فجاءوه باللعنة من المسلمين جميعاً !

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أن الدين الأسلامى خرافة وشعوذة على النفس ، وأن نحو الأخلاق الأسلامية العظيمة هو نفسه إيجادُ أخلاق ، وأن الأسلام كان جريئاً حين جاء فاحتلَ هذه الدنيا ؛ فلا يطردُه من الدنيا إلا جراءةُ شيطان كالذى توقّح على الله حين قال : « فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين . » ولهذا أمر الناس بسبّ الصحابة ، وأن يكتب ذلك على حيطان المساجد والمقابر والشوارع !

أخزاه الله ! أهى رواية تمثيلية يلصق الأعلانَ عنها فى كل مكان ؟ لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول : اخزاه الله . . . !

المجلد الرابع

هذا الفاسقُ لا يركبُ إلا حماراً أشهب يسمّيه : (القمر) ، وقد جعل نفسه محتسباً لغاية خبيثة ؛ فهو يدور على حماره هذا فى الأسواق ومعه عبدٌ أسود ، فمن وجده قد غشَّ أمرَ الأسودَ

ف ... ! ووقف ينظر ويقول للناس : انظروا ... ! ومن غَلَبة الفسوق على نفسه وعلى شيعته أن داعيته (حمزة بن على) نوّه بالحمار فى كتابه وأومأ إليه بالثناء ، لخصال : منها أن ... ! وكتبَ حمزةُ هذا فى بعض رسائله : أن ما يرتكبه أهل الفساد بجوار البساتين التى يمرُّ بها (الفاسق) من المنكر والفحشاء — إنما يُرتكب فى طاعته ... !

هذه طبيعة كلِّ حاكم فاسق ملحد ، يرى فى نفسه رذائله عُريانةً فلا يكون كلامه وعمله وفكرُه إلا فُحشاً يتمرَّى ؛ وإن فى هذا الرجل غريزةَ فسق بهيمية متصلة بطور الحيوان الانسانىّ الأول ؛ فما من رَيْب أن فى جسمه خليَّةً عصبية مهتاجة ، مازالت تسبح بالوراثة فى دماء الأحياء ، متلفّفةً على خصائصها حتى استقرّت فى أعصاب هذا الفاسق ، فانفجرت بكل تلك الخصائص

ولست أرى أكثرَ أعماله ترجع فى مردّها إلا إلى طغيان هذه الغريزة فيه ؛ فهو يحاول هدم الاسلام ، لأنه دين العفة ، ودينُ صَوْنِ المرأة ، يُلزمها حجابَ عفّتها وإبائها ، ويمنعها الابتذالَ والخلاعة ، ويعينها أن تتخلص ممن يشتهيها ولو كان الحاكم ... إنه يمقت هذا الدين القوىّ كما يمقتُ اللصُّ القانون ؛ فهو دينٌ يثقُل على غريزته الفاسقة ، ولكلِّ غريزة فى الانسان شعور لا تهنأ لها إلا أن يكون حراً حتى فى التوهّم ؛ وهل يُعجب السكيرَ شىءٌ أو يرضيه أو يلذه كما يعجبه أن يرى الناسَ كلهم سُكارى ، فينتشى هو بالخمر ، وتسكر غريزتُه برؤية السكْر

ومازال رأىُ الفُسّاق فى كل زمن أن الحرية هى حريةُ الاستمتاع ، وأن تقييد اللذة إفسادٌ للّذّة

المجلد الخامس

يزعم الطاغية أنه يُعزُّ قومه — وما أراه يعزهم — ولكنه يمتحن ذلّهم وضعفهم وهوانهم على الأمم ؛ فهو يتجرأ شيئاً فشيئاً مُتنظّراً ما يتسهّل مترقباً ما يمكن ؛ وهو يرى أن أخلاقنا الاسلامية هى أمواتُنا دفنوا أنفسهم فينا ؛ فمن ذلك يهدمُ الأخلاق ويظنّ عند نفسه أنه يهدم قبوراً لا أخلاقاً

ولقد سَخِر منه المصريون بنكتة من ظَرفهم البديع ، وجاءوه من غريزته فصنعوا امرأةً من الورق الذى يشبه الجلد ، وألبسوها خُفّها وإزارها ، حتى لايشكّ من رآها أنها آدمية ، ثم وضعوا فى يدها قصّة وأقاموها فى طريقه ؛ فلما رآها عَدَلَ إليها وأخذ من يدها القصةَ وقرأها ، فاذا فيها سَبٌّ له ولآبائه ، وسخرية من جنونه ورُعونته المضحكة ؛ فغضب وأمر بقتل المرأة ؛ فكانت هذه سخريةً أخرى حين تحقّق أنها من الورق ، وأخذته النكتةُ الظريفة بمثل البرق والرعد ؛ فاستشاط وأمر عبيده من السودان بتحريق الدور ونهبِ ما فيها وسَبْى النساء والفجور بهن ؛ حتى جاء الأزواج يشترون زوجاتهم من العبيد بعد أن طارت الزوبعة السوداء فى بياض الأعراض

اندلعتْ ثورة الفجور فى المدينة ، لا من العبيد ، ولكن من الحيوان العتيق المستقرّ فى هذا الطاغية

المجلد السادس

وهذه رُعونةٌ من أقبح رعوناته ، كأن هذا الحيوان لايحسب نساءَ الأمة كلّها إلا نساءه ، فيأمرهن بأمر امرأته ، وكأن النساء فى رأيه إنْ هُنّ إلا استجاباتٌ عصبيةٌ تُطلق وتُرَدّ

إن لموجةِ الفسق فى الغريزة الطاغية جَزْراً ومداً يقعان فى تاريخ الفُسّاق ؛ فهذا الطاغية قد جَزرَتْ فيه الموجة ، فأمر أن يُمنع النساءُ من الخروج ليلاً ونهاراً ، لاتطأ أرضَ المدينة قدمُ امرأة ؛ وأمرَ الخفّافين ألايصنعوا لهن الأخفاف والأحذية ؛ ولما علم أن بعض النساء خرجن إلى الحمامات هدَم الحمامات عليهن !

ولو مدت الموجةُ فى نفس الفاسق لفَرضَ على النساء الخروجَ والاتصالَ بالرجال والتعرض للاباحة

إن الصلاح والفساد كلاهما فساد ، مالم يكن الصلاح نظافةً فى الروح وسمواً فى القلب

المجلد السابع

يزعم الطاغيةُ أنه سيهدم كل قديم ، وإنى لأخشى والله أن يأمر الناسَ فى بعض سَطَوات جنونه : أن كل من كان له أبٌ أو أم بلغ الستين فليقتله لتخلص الأمة من قديمها الانسانى ... !

كأنه لايعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لاعلى التاريخ ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم لاعلى قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف ؛ فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث فى الدنيا شيئان : نَتْن رمته فى بطن الأرض ، ونَتْن أعماله على ظهر الأرض

إن هذا الرجلَ المسلط كالغبار المُستطار ، لا يُكنَس إلا بعد أن يقع . . .

ولقد رأى المأفون أن أكل الناس الملوخيّا الخضراء والفقاع ، والتُّرمس والجِرْجير ، والزبيب والعنب — هوًى قديمٌ في طباع الناس ، فنهى عن كل ذلك ، لا يُباع ولا يُؤكل ، وظهر على أن جماعة باعوا أشياءَ منها فضربهم بالسياط ، وأمر فطِيفَ بهم في الأسواق ، ثم ضَرب أعناقهم ؛ كأن الذى يحمل الملوخيّا الخضراء على رأسه ليبيعها يلبس عمامة خضراء . . . أهذا — وَيْحه — تجديدٌ في الأمة ، أم تجديدٌ في المعدة ...؟

المجلد الثامن

لا يرضى الطاغيةُ إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها ، فلا يترك شيئاً رُوحانياً يكون له في أعصاب الناس أثرٌ من الوقار . وعن يستظهر إذا مُحقت روحانيةُ الأمة وأشرفت نَزْعتها الدينية على الانحلال ؟ كأنه لا يعلم أن حقيقة الوجود لأمةٍ من الأمم إنما تُستمدُّ من إيمانها بالمثل الأعلى الذى يدفعها في سِلْمها إلى الحياة بقوّة ، كما يدفعها في حربها إلى الموت بقوة ؛ وكأنه لا يعلم أن التاريخ كله تُقرره في الأرض بضعةُ مبادئَ دينية

هذا الحاكم الأخرق هو عندى كالذى يقول لنفسه : لم أستطع أن أفتح دولة ، فلأفتحْ دولةً في مملكتي . . . لقد أمر بهدم الكنائس والبيع ، حتى بلغ ما هدم منها ثلاثين ألفاً ونيِّفاً

أيّ جنونٍ أسخف جنوناً من هذا الذى يحسب النفوسَ الانسانية كالأخشاب ؛ تَقبل كلُّها بغير استثناء أن تُدقّ فيها المسامير . . . ؟

سيعلم إذا نَشبتْ حربٌ بينه وبين دولة أخرى ، أنه كسرَ أشدّ سيوفه مضاءً حين كسر الدين !

المجلد التاسع

هذه هى الطامة الكبرى ؛ فلا أدرى كيف أكتب عنها : لقد تطاول المجنون إلى الألوهية فادعاها وصار يكتب عن نفسه : باسم الحاكم الرحمن !!

لو كان أغبى الأغبياء في موضعه لاتقى شيئاً ، لا أقول تقوى الدين والضمير ، ولكن تقوى النفاق السياسيّ ؛ فكان يحمل الناس أن يقولوا عنه : « أبانا الذى في الأرضين . . . ! »

وإلا فأيّ جهل وخبط وأيّ حُمق وتهوُّر ، أن يكون إلهٌ على حمار ، وإن كان اسم حماره القمر !

المجلد العاشر

سيأخذه الله بامرأة ؛ ولكل شيءٍ آفةٌ من جنسه ؛ لقد بلغ من وقاحة غريزته أن التفتَ على أخته الأميرة (ستّ المُلك) ، ورماها بالفاحشة وهى من أزكى النساء وأفضلهن ، واتهمها بالأمير (سيف الدين بن الدوّاس) وقد علمتْ أنها تُدبِّر قتله ، وأنها اجتمعت لذلك بسيف الدين . فسأمسك عن الكتابة في هذا المجلد ، وأدع سائره بياضاً حتى أذهب اليهما فأعينهما بما عندى من الرأى ، ثم أعود لتدوين مايقع من بعد . . .

* * *

ورأيت أنى اجتمعت بهما واطمأنّا إليّ ، فأخذنا ندير الرأى :

قالت الأميرة لسيف الدين فيما قالته : « والرأى عندى أن تُتبعه غلماناً يقتلونه إذا خرج في غدٍ إلى جبل المقطم ، فانه ينفرد بنفسه هناك ! »

فقلت أنا : « ليس هذا بالرأى ولا بالتدبير »

قالت : « فما الرأى والتدبير عندك ؟ »

قلت : « إن لنا علماً يسمونه (علم النفس) ، لم يقع لعلمائكم ، وقد صحّ عندى من هذا العلم أن الرجل طائش الغريزةِ مجنونها ، وأن الأشعة اللطيفة الساحرة التى تنبعث من جسم المرأة ، هى التى تنفجر في مخه مرّةً بعد مرة ؛ فاذا خَبتْ هذه الأشعة ، وبطلت الغريزة — بطلت دواعى أعماله الخبيثة كلها وكفّ عن محاولته أن يجعل الأمة مملوءةً من غرائز جسمه وشهواته لا من فضائلها ودينها . فلو أخذتم برأيى وأمضيتموه فانه سينكر أعماله إذا عرضها على نفسه الجديدة ، وبهذا يُصلح ما أفسد ، وتكون حياته قد نطقت بكلمتها الصحيحة كما نطقت بكلمتها الفاسدة ؛ فاذا . . . »

قال الأمير : « فاذا ماذا ؟ »

قلت : « فاذا خصى . . . »

فضحكت ستُّ الملك ضحكةً رنّتْ رنيناً . قلت : « نعم إذا خصى هذا الحاكم ... » فعلها الضحك أشدّ من الأول ورمتنى بمنديل لطيف كان في يدها أصاب وجهى فانتبهت وأنا أقول « نعم إذا خصى هذا الحاكم . . . . »

طنطا مصطفى صادق الرافعي